

الحديث ذو شجون للدكتور زكي مبارك

الحياة والموت في الآيات القرآنية - احترسوا من الأموات - العنق الوريق

قرأت السؤال الموجه إلى الأستاذ محمد أحمد العمراوى من أحد أفاضل القراء ، وقرأت إجابة حضرة الدكتور عباس محمود حسين ، وإجابة حضرة الدكتور حامد البدرى الغرابي ، ثم رأيت أن أشارك في الإجابة ، لأن عندى آراء ترفع اللبس عن الآية القرآنية ، وتلقى على الموضوع بوارق من الضياء

القرآن يقول «يُخرج الحي من الميت» والعلم يقول إن الحي لا يخرج من الميت ، فكيف نوفق بين قول العلم وقول القرآن ؟ إن هذا الخاطر حير البرية منذ أزمان ، فقد قال أبو العلاء : والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد وأسارع فأقرر أن مصدر الحيرة يرجع إلى عدم فهم المراد من الميت ، وعدم فهم المراد من الجماد

وبيان ذلك أن الموت في الآية القرآنية ليس هو الموت الذى يتنافى الحياة كل للمنافاة ، وإنما هو الحالة التى لا تتمثل فيها خصائص الحيوان والنبات من الإحساس والنماء ، وكذلك يقال في الجماد وهو الطين في بيت العلاء ، فالطين ليس له في الظاهر إحساس ولا نماء ، ولكن فيه حيوية تظهر في قدرته على تحويل البذور إلى نبات ، فهو يحتملها بحرارة تشبه احتضان الطير للبيض ، وتلك الحيوية متفرعة عن أسباب جوية ، ولكنها أصيلة في الطين بدليل قدرته على اجتذاب وسائل الإنضاج ، فإنه لا يمكن تصور إفاعلية بدون تصور القابلية ، والقابلية استعداد يشهد بالحيوية بروى أن أستاذنا الروحي في التصوف وهو أبو الحسن الشاذلى قال : «نحن كالسلحفاة نرعى أبناءها بالنظر» ، وهي عبارة في غاية من الجمال

ومع أنى لم أفكر في تحقيق هذه الظاهرة الطبيعية فقد سمعت أن النعامة تحتضن بيضها بالنظر فقط ، لأنها لا ترقد عليه وطرفتها في الاحتضان أن تنظر إلى البيض باستقامة لا يبروها

التفات إلى اليمين أو الشمال ، فإذا تعبت جاء الظليم فوقف مكانها وصوب نظره إلى البيض بنفس الأسلوب ، لأنه إذا انحرف يمنة أو يسرة خفت الحرارة فبرد البيض

وعن هذه الصورة نقلت بعض الكنائس وضع بيضة النعامة في الحراب ، لتوحى إلى المصلين أن الصلاة لا تقبل إذا اعتري المصل أى انحراف

ففترة السلحفاة للتغذية ونظرة النعامة للاحتضان ، هاتان النظرتان فيهما حيوية لا يرتاب فيها مرتاب ، وهما تشبهان احتضان الطين لبذور الشجر والنبات

قلت مرة إنى أنكر أن يكون في الوجود شيء ميت ، وهذا رأى كونه بعد تجارب ، وهو في يقيني صحيح صحيح ، وعندى على سمته براهين

ما رأيكم في الغبار الذى يشور فيس مَسَام الأجسام ويقضى العيون ؟

في ذلك الغبار حيوية تسبب ذلك الإيذاء ، وإن سكت عنها الباحثون ، وبرهاني على هذا القول أن القابلية لا تتأثر بدون فاعلية ، ومعنى ذلك أن الغبار من الأحياء لأنه فقال يقول الدكتور حامد البدرى :

« الإنسان الحي يقتات من المواد النباتية وهي غير حية ، كما يقتات من لحوم الحيوانات بعد ذبحها وموتها وخلاياها موتاً كلياً »

وأنا لا أقول بهذا القول ، فالنباتات التى نأكلها حية وليست بميتة ، ولحوم الحيوانات لا تموت خلاياها موتاً كلياً بذبحها وموتها ، كما يقول هذا الطبيب ، وإنما هي لحوم حية وإن أنضجناها بالنار ، وإلا فكيف يمكن أن تمود على أجسامنا وعقولنا بالنشاط والأريحية ؟

إن حياة الدجاجة ، حياتها الطبيعية ، لا تقاس إلى حياتها المنوية بعد أن تذبح وتؤكل ، فقد يكون آكلها قائداً فينتصر في موقعة ، وقد يكون شاعراً فينظم قصيدة بليغة ، وقد يكون باحثاً فينشط ذهنه لحل أصعب المعضلات

هل تعرفون شيئاً عن طمى النيل ، وإلى ذلك الطمى يرجع خصب الأرض المصرية ؟

إن خاف المصري الحسد قال : عين الحسود فيها عود . وإن
خاف الفرنسي الحسد قال : لمس الخشب Touchez le bois
فما معنى هذا التوافق العجيب في الفكرة والصورة ؟
هل كان المصريون والفرنسيون يدركون قيمة الخشب
في دفع بأس الكهرياء ؟
هذه والله إحدى العجائب

المهم هو أن أقرر بصراحة أن ليس في الوجود شيء ميت ،
وأن القرآن حين قال : « يخرج الحي من الميت » لم يكن يريد
الموت المطلق ، وإنما كان يريد الموت الاصطلاحي ، وهو الحالة
التي لا تتمثل فيها خصائص الحيوان والنبات من الإحساس والحياة
وما هو الموت إذا أردت حقيقة الموت ؟

إن كان الموت هو الفناء فلا فناء
قال القرآن المجيد : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد »
ومع هذا فالله لن يتركنا أبداً ، فالكتب السماوية صريحة
في أنه سيردنا إليه ، للثواب أو العقاب ، وعلى هذا لن يكون
الموت غير غفوات قصار أو طوال

ثم ماذا ؟ ثم أسأل عن التفسير الصوفي لعبارة « يخرج
الحي من الميت » وهو تفسير سكت عنه أساتذتي في التصوف ،
ومن حق أن أتأدب بأدبهم فأدير الحديث بالرض والإيماء
الميت في التصوف هو الإنسان الفاني ، والحي في التصوف
هو الإنسان الباقي ، ومن فضل الله على عباده الفانين ، أن يجعل
منهم عباداً خالدين

فإن قيل : وكيف يخرج الله الميت من الحي على الطريقة
الصوفية ؟ فأنا أجيب :

الحي في هذه المرة هو الدنيوي المفتون ، وسينتقم الله منه
فيجعله ميتاً بالعقاب يوم الحساب

أما بعد فهذه كلمات لم أرد بها تفهيد ما قاله ذاك الطيبان
الفاضلان ، وإنما أردت أن أقدم إلى قرائي حقائق تمتلج في
صدرى ، وهى حقائق متصلة بالفروح التي أيدت بها نظرية
وحدة الوجود

لا موت ولا فناء

فاسمعوا كلامي واعتقدوا أن في مقدور كل مخلوق أن يظهر
بالخلود إن أراد

ذلك الطمي ليس غباراً تسفيهه الرياح كما يقول جماعة من
المهندسين ، وإنما هو محصول حيواني ونباتي تنظمه خلائق
صغيرة لم يتحدث عنها العلم ولا التاريخ ، ولهذا السبب نجد
في الفلاحين من يأكل طعم النيل بشبهة ، لأنه في الواقع طعام
لأتراب ، وهو لدسامته المفترطة يؤذى الأمعاء ، ويصيب
الفلاحين بمرض الزهقان

والفلاح بطبعه يترك الماء المقطر ، ويُقبل على الماء المعكر
لأن عكارة ماء النيل غذاء ، وهى السبب فيما تتمتع به من الخيرات .
لا تنسوا أن تلك العكارة هى في الأصل عناصر نباتية وحيوانية ،
وإن سكنت عنها الأطباء في القديم والحديث

ثم ماذا ؟ ثم أمضى إلى نهاية الشوط فأقول :

ما الذى يوجب أن تكون الرسوم الموامد من أسباب
الإيحاء ، إلى الشراء ؟

تذكروا الفاعلية والقابلية ، لتعرفوا أن الرسم المهاد
لا يخلو من حياة ، وهل يوحى الأموات إلا وهم في بعض
أحوالهم أحياء ؟

الناس في جميع العهود يؤمنون بالعين ، أو يخافون العين ،
وتلك أسطورة معروفة عند بني إسرائيل ، وعندهم نقلها أكثر
شعوب الشرق ، وما سميتها أسطورة إلا لتطفاً مع العلم الحديث ،
وإلا فهى حقيقة من الحقائق ، فعين الحاسد يصدر عنها شعاع
محير ، شعاع يحسسه الحاسد نفسه ، كما نص بعض القدماء ،
وهذا الشعاع يُسلم الرجل إلى القبر ، والجل إلى القدر ، كما
جاء في بعض الأحاديث المنسوبة إلى الرسول

قال يعقوب لبنية عند دخولهم عاصمة مصر لذاك العهد :
« يا بني لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة »
فما معنى هذه الوصية ؟ قال جماعة من المفسرين : إنه خاف عليهم
عيون الحاسدين

ولنفرض أن الحسد خرافة في خرافة ، وأن الجاهلين افتروا
على النبي محمد والنبي يعقوب ، فسكيف نفشت تلك الخرافة
في أكثر الشعوب ؟

هل تصدر الخرافات بدون أصل ؟

إن كان ذلك فحدثوني عن التوافق بين المصريين
والفرنسيين في هاتين العبارتين :

جاهدوا وتحبوا ، فلا حياة بدون جهاد

لا تكونوا صحراوات لا يترقق فيها غير السراب ، وإن
كان للصحراء حياة تتمثل في قدرتها على تفويف ألوان السراب
كل شيء حتى ، حتى الصحراء التي تبدع السراب ، فإن
من سمع قبل اليوم أن الصحراء تؤيد غناها الموهوم بتلك الأحاييل ؟
وكيف يكون غنى الصحراء غنى موهوماً وهي لا تقل
في الثروة والمناعة عن البحر المحيط ؟

أنا لا أخاف عليكم الموت ولا الفناء ، لأنني أنكر الموت
والفناء ، وإنما أدعوكم إلى التسليح بسلح الفاعلية لا القابلية
لا تكونوا مقابر توحى فكرة الخوف والخذلان ، وكونوا
آسداً توحى فكرة السيطرة والافتراس
القبر يوحى والأسد يوحى ، فاختراروا الأفضل والأشرف
من الوحيين

لا موت في الوجود ولا فناء

ولكن الميت قد يحيا ، والحى قد يموت
أمورك بأيديكم ، فاصنعوا بأنفسكم ومصاركم ما تريدون ،
فقد بلغت في نصحكم غاية ما أملاك من عافية الروح وصراحة البيان

امرئسوا مع الأموات

وراء كل إنسان حى إنسان ميت يسوقه بعنف إلى مصائر
فيها المقبول والمردود ، تبعاً لما يملك الميت من آراء وأهواء
ومن غرائب ما يقع في القدوة الفكرية أن الناس في الأغلب
لا يحترمون رأى المفكر إلا بعد أن يموت . هل التفت الناس
إلى آراء الشيخ محمد عبده إلا بعد أن مات ؟
إن الشيخ عبده كان يتندر بمعارضه فيقول إنهم لا يحترمون
غير الرأى المنصوص عليه في كتاب قديم بعهد صاحبه بالحياة
والأحياء

وغفلة بنى آدم من هذه الناحية أوضح من أن تحتاج إلى
بيان ، فقد أشاع أبو نواس وأصحابه أن الخمر لا تجود إلا إن قدم
عدها بالوجود ، ولهذا نجد تجار الخمر يعفرون الزجاجة بالتراب
ليوهوا الغافلين أن جوهرها عتيق ، كما كنا نرى في بعض
مخازن الخمر بمدينة باريس
والقديم في الأدب هو الأصل ، فقد صرت أزمان والناس

يمتقدون أن أشعار الجاهليين أقوى وأبرع من أشعار الأمويين
والعباسيين

القدم في عرف بنى آدم يمنح صاحبه قدسية تفوق الوصف ،
وهو شارة من شارات التضج العبقري في الأشخاص وفي المعاني
بسبب ما درج عليه الناس من احترام الأموات
أى العبارتين أقوى : عبارة قال القدماء ، أو عبارة قال
المعاصرون ؟

وازنوا بين هاتين العبارتين من الوجهة النفسية لتصدقنى
وأى الحفظين أنفع في نظر المتأدين : حفظ ديوان المتنبي ،
أم حفظ ديوان شوقي ؟

إن الأموات يسيطرون على الجماهير سيطرة روحية وعقلية
لا يرتاب فيها إنسان ، ولو كان من أكابر الحكماء
فكيف ننكر أن يخرج الحى من الميت ، وهذا هو الحال
في تصورات الأفهام والعقول ؟

للموت قدسية رائعة ، فهو يرفع الأموات إلى آفاق لم تخطر لهم
في بال ، فلم تسمعوا أن كلمة الموت أصبحت مرادفة لكلمة الخلود ؟
تبارك من يخرج الحى من الميت ، وعفا عن صاحب ذلك
الاعتراض !

الفنن العربى

هذا الفنن هو مصدر الوحي ، وهو أنصرفن من أفنان الجلال
جماله عندى ليس جمال الشراب المعتق ، وإنما هو جمال الماء
الصالح فى بحر سننيس

أهفو إليه وهو مبرحة ناشئة لم يفرّد فوقها غير شمرى
وخيالى ، وأشتاق رؤيته لأحميه من رقة النسائم فى لطائف الآصال
فوق أوراقك أيها الفنن الورىق تراق دموع الهوى ، وهى
أرق من قطرات الندى ، ومن أجل الوفاء لهواك بفتضح من
يكره الانفتاح

وهل عرف أحد هويتك ، أيها الفنن الورىق ؟
أنت نفسك لا تعرف أنك المعنى بما يهتف به روحى فى رسائل
وأشعارى ، يا أجل جاهل فى هذا الوجود
هل تعرف أيها الفنن رفق بك فى القرب من أيامك ولياليك ؟
كان يبدى أن أصيرك سرخة لا يترنم فوقها بلبل ، ولا